الإلحاد والدوافع الشخصية

هناك نوعان من المفكرين هؤلاء الذين يشكلان رغباتهم تبعًا للحقيقة وهؤلاء يشكلون الحقيقة تبعًا لرغباتهم وبين هؤلاء يوجد طيف واسع من الأنماط الفكرية.

- الإلحاد والدوافع الشخصية:

تثير ضحالةُ وسطحية ما يقدمه الملاحدة من حجج موضوعية - علمية وعقلية - لإلحادهم دهشةَ المهتمين بقضايا الإلحاد إلى حد بعيد، ويزيد من الدهشة أن معظم هؤلاء قد اتخذوا قرارًا حاسمًا بالرفض في أخطر قضايا الوجود الإنساني وهي قضية الألوهية دون أن يبذلوا أدنى جهد في البحث لتحرى صحة ما يثيرونه من حجج.

والمتابع للدراسات حول الإلحاد يجد أن علوم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والطب النفسي تركز في مرجعها في السنوات الأخيرة على الدوافع النفسية والشخصية والاجتماعية للإلحاد باعتبارها العامل الأول للانحراف عن فطرة الإيمان بالإله، ويتبنى المتخصصون في هذه العلوم أن الحجج المعرفية التي يطرحها الملاحدة تأتي كقناع Persona تختفي وراءه الدوافع النفسية والشخصية لإلحادهم.

- تجربة بول فيتز الشخصية في عالم الإلحاد:

من المفاهيم السائدة في الأوساط الفكرية الغربية أن الإيمان بالإله ينطلق من قصور فكري ورغبات وأحلام غير ناضجة بينما ينطلق الإلحاد والشك من نضج فكري ودوافع موضوعية يناقش بول فيتز هذا المفهوم ويثبت خطأه كما يناقش بعض الدوافع الشخصية / الاجتماعية وراء الإلحاد من خلال تجربته الشخصية يقول بول فيتز:

نشأتُ نشأة دينية مسيحية سطحية، وفي خمسينيات القرن العشرين حينما كنت طالبًا في الجامعة أصبحت ملحدًا وبقيت هكذا طوال فترات الدراسة والسنوات الأولى من تدريبي في مجال علم النفس التجريبي في جامعة نيويورك، وفي أواخر الثلاثينيات من عمري عدت إلى دائرة الإيمان المسيحي في وسط يعصف بالعلمانية في قسم علم النفس وفي مدينة نيويورك وعندما أتأمل الفترة الشكية الإلحادية في حياتي (١٨ : ٣٨) سنة أجد أن دوافعي كانت سطحية وغير منطقية وغير متماسكة عقليًّا ولا أخلاقيًّا، وهذه الدوافع هي نفس ما أرصده فيمن حولي من غير المؤمنين من المهتمين بعلم النفس وعلم الاجتماع، إن الأسباب الرئيسية وراء إلحادي – والتي لم أكن واعيًا بها حينها – هي:

١ – عوامل شخصية / اجتماعية عامة:

كانت حياتي الاجتماعية في صباي غير سهلة فقد كنت محبطًا أن كنت من أواسط الغرب Midde West الأمريكي الذي اشتهر بكسل أهله وبلادتهم وقرويتهم، كذلك لم يكن شيئًا مثيرًا ولا رومانسيًّا أن تكون من مدينة Cimcimmati بولاية أوهايو ومن عائلة أصولها خليط غامض من الألمانية والإنجليزية والسويسرية، باختصار كنت أنتمي إلى طبقة متوسطة بائسة محبطة، وعندما انتقلت إلى ميتشجان حاولت أن أتأقلم مع المجتمع الجديد العلماني البراق المثير. لا شك أن مثل هذه الخلفية وهذه النقلة قد عاشها العديد من الشباب الذين كانوا يحلمون بالترقي طوال القرنين السابقين، ومن هؤلاء المفكر الفرنسي فولتير الذي انتقل إلى باريس الأرستقراطية المتألقة المتكلفة، وقد ظل يشعر بالإحباط بسبب أصوله الريفية غير الأرستقراطية، ومن هؤلاء أيضًا أولئك الذين هجروا جيتو اليهودية الذي نشأوا فيه، وتربوا على مفاهيم الأصولية المحبطة لقد دفعت هذه الضغوط الاجتماعية الكثيرين بعيدًا عن الإله وعن كل ما يمثله الدين

من قيم، وما زلت أذكر الحلقة النقاشية التي شاركت فيها عند تخرجي في المدرسة، وفي الحلقة عبر كل فرد عن ضعفه وارتباكه في مواجهة الظروف الاجتماعية الجديدة عندما انتقل من منشئه وكيف تعامل مع هذه النشأة وكنت أنا أحد المتحدثين.

٢ - عوامل شخصية / اجتماعية خاصة:

عامل مهم آخر في توجهي للإلحاد كان رغبتي في أن ألقى قبولًا في أوساط علماء النفس الكبار المؤثرين، خاصة أساتذتي في الدراسات العليا الذين تأثرت بفكرهم خلال فترة دراستي الأكاديمية لعلم النفس.

أما أساتذتي في ستانفورد الذين كانوا كثيري الاختلاف حول النظريات العلمية فقد كانوا متفقين في جانبين اثنين: طموحهم العلمي المستقل، ورفضهم الدين وكما تعلمت أن «أرتدي» الثياب الملائمة لطالب الدكتوراه، فقد تعلمت كيف «أفكر» كنفساني يحسن عرض الأفكار الإلحادية ويحسن السلوك تبعًا لها.

٣ - الاستقلال الذاتي:

لا شك أن السمة الشخصية السائدة في المجتمع الغربي الآن هي «أن تصنع نفسك» هذا الشعور الذي تأسس في ظل حرب الاستقلال الأمريكية والثورة الفرنسية.

لقد أصبح المواطن الغربي المعاصر يسلك وكأنه مبرمج:

.No - One - Tells - Me - What - To - Do

لا - أحد - يخبرني - ماذا - أفعل.

ولا شك أن هذا الختم - الأكلاشيه - يناسب تمامًا نفسية شاب يعمل في علم النفس إنها الرغبة في التحرر التي تدعم رفض الإله.

٤ - الملاءمة الشخصية:

كعامل أخير للدوافع السطحية ظاهريًا العميقة تأثيرًا يأتي دور الملاءمة والارتياح الشخصيين، ليس من السهل بتاتًا أن تصبح متدينًا في مجتمع علماني وثني فللاحتفاظ بتدينك في هذا العالم سيكون عليك أن تتنازل عن الكثير من اللهو والوقت الممتع، وبدون الدخول في التفاصيل سيكون عليك التضحية بالاستمتاع بالجنس بالإضافة إلى التضحية ببعض الوقت والمال للمشاركة في خدمة الكنيسة ولقاءاتها وللصلاة وقراءة الكتاب المقدس وشروحه ومساعدة الآخرين.

لقد كنت مشغولًا للغاية ومن ثم لم يكن التدين ملائمًا لي شخصيًا.

قد تعتبر أن الأسباب السابقة قاصرة على شاب في العشرينات قليل الخبرة مثلي لكن هذه الأسباب في الحقيقة أكثر عمومية من الاقتصار على هؤلاء.

انظر إلى الفيلسوف والمفكر والكاتب الأمريكي الشهير مورتيمر أدلر الذي أنفق معظم حياته يفكر في الإله وفي الموضوعات الدينية فمن أشهر كتب أدلر (١٩٨٠) «كيف تفكر في الإله؟ دليل لوثني القرن العشرين» في هذا الكتاب يقدم أدلر أدلة قوية للغاية على الوجود الإلهي حتى يصبح قريبًا جدًا من الإيمان بالإله، لكن يتراجع ويفضل أن يبقى ضمن - الأغلبية العظمى من غير المتدينين - وتدرك بوضوح من خلال الكتاب أن دوافع أدلر الإلحادية كانت «رغبة واختيار» أكثر منها «امتناع عقلي»، ويصرح بذلك في سيرته الذاتية ويخبرنا أدلر صراحة أن يصبح متدينًا يتطلب تغيرًا جذريًا في طريقة حياته إن نمط حياة جديدة لم أكن «أريد» أن أحياه.

ويلخص بول فيتز دوافعه الشخصية / الاجتماعية للإلحاد قائلًا:

لقد أصبحت ملحدًا بسبب عوامل سطحية فعالة:

- احتياجاتي الاجتماعية لأن أتأقلم مع المجتمع.
- واحتياجاتي المهنية لأن أصبح عضوًا في المجتمع النفسي الأكاديمي.
- وأن احتياجاتي تبعًا لنمط معيشي يُمتعني.

وبذلك يمكن القول أن تبني الإلحاد كان قرار شاب مراهق، وظل هكذا بالرغم من تجاوزي سن المراهقة. ما أروع تحليل بول فيتز الذي أقنعني فيه بشدة أن دوافعه الإلحادية كانت نفسية شخصية اجتماعية أكثر منها عقلية منطقية.

التحليل الأخلاقي والإلحاد:

الحياة بوجهين:

في عام ١٩٨٨ نشر الكاتب ومؤرخ القرن العشرين الإنجليزي الكبير بول جونسون Paul Johnson كتابه القيم» المفكرون «Jntellectuals والذي يصفه بأنه «دراسة المفاهيم الأخلاقية والفكرية لعدد من كبار العلماء وفلاسفة ومفكري الإنسانية بهدف الخروج بدروس عن كيف تدير شؤونها»، والكتاب – عبر ٣٤٢ صفحة – هو عملية كشف لسلوكيات بشرية كريهة وغير أخلاقية تتأذى النفس من مطالعاتها، والمشكلة ليست في التفاصيل الدنيئة والخسيسة لهؤلاء، لكن تكمن المشكلة في أن الإنسانية تعتبر هؤلاء من أبطالها ورموزها الفكرية وبناة حضارتها، بل قام هؤلاء برسم خارطة الطريق للبشرية ستفاجأ قارئي الكريم بل ستصدم حين تكتشف أن العديد من الرموز الفكرية للبشرية كانوا إباحيين، وكانوا أنانيين مغرورين، وأن اهتمامهم المزعوم بالإنسانية كان كذبًا ونفاقًا يختفي وراءه قدر كبير من القسوة واللامبالاة بأقرب الناس إليهم خاصة أفراد عائلاتهم، هكذا يصفهم بول جونسون لذلك لم يكن غريبًا أن يتبنى هؤلاء الإلحاد.

شخصيات ذات وجهين:

من أهم الشخصيات التي تناولها بول جونسون للاستشهاد على دعواه:

١ - جان جاك روسو:

كان الفيلسوف والمفكر روسو شديد الزهو والاختيال لا يتحمل المسئولية؛ فقد أنجب خمسة أطفال غير شرعيين تركهم في ملجأ أيتام وهو كان يعني في أيامه الموت المبكر.

٢ - بيرسى بيسش شيلي:

كان الشاعر شيلي محتالًا مدمنًا للخمر عصبي المزاج، وكان مدمنًا للزنا أنجب من ثلاث نساء سبعة أطفال أهمل تربيتهم، ومات أحدهم ولم يتجاوز من العمر ثمانية عشر شهرًا في ملجأ أيتام.

٣ - كارل ماركس:

كان ماركس معادٍ متطرف للسامية، أناني كسول مستغل لأصدقائه فاسق داعر، كثير الخيانة لزوجته ترك طفلًا غير شرعي ورفض الاعتراف به.

٤ - ليو تولستوي:

كان الأديب الروسي الكبير مصابًا بداء العظمة، وكان مقامرًا منحرفًا خرفًا وزانيًا مغتصبًا للنساء وكان يحتقرهن ويحتقر ويزدري زوجته.

٥ - هزيك أبسن:

كان أبسن مزهوًا مختالًا وكان حقودًا لا قلب له وزير نساء لا يبالي إلا بالمال، يحتقر الفقراء والمحتاجين حتى لو كانوا من عائلته.

٦ - أرنست هيمنجواي:

كان سلوك الأديب الإنجليزي الكبير يخالف اسمه (مخلص Ernest)

فقد كان كذوبًا يحتقر النساء فاسقًا داعرًا مدمنًا للخمر فدمر نفسه.

٧ - برتراند رسل:

كان رسل يحتقر النساء، وكان زانيًا مزمنًا ومغتصبًا خاصة تلميذاته الصغيرات حتى في سنه الكبيرة، وبالرغم من ذلك استاء عندما مارست إحدى زوجاته الزنا.

٨ - جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار:

كان فيلسوف الوجودية سارتر فاسقًا ومغامرًا جنسيًّا حتى مع تلميذاته؛ لذلك كان سهل المنال لعشيقته سيمون التي اشتهرت بعلاقاتها الجنسية المتعددة بالرجال حتى إنها منعت من التدريس لعلاقاتها الإباحية بتلاميذها.

٩ - آرثر شوبنهور:

أصيب شوبنهور بمرض الزهري الجنسي نتيجة لإباحيته الجنسية، وكان من الداعين لزواج أكثر من رجل من امرأة واحدة مثله في ذلك مثل كثير من الملاحدة الذين يؤيدون العلاقات الجنسية المتعددة لكلا الجنسين.

١٠ - فريدريخ نيتشه:

يذكر فرويد وكارل يانج أن نيتشه قد أصيب بالزهري نتيجة لعلاقة جنسية مثلية في جنوة بإيطاليا، وكان من المؤيدين للعلاقات الجنسية مع المراهقين.

١١ - المركيز دي صاد:

اشتهر المركيز بشذوذه وعدوانيته الجنسية حتى عُرف أحد أنواع الانحراف الجنسي والنفسي باسمه - السادية -، وكان من الداعين للإجهاض، وقد رفض الألوهية لأنها تضع قيودًا على رغباته الجنسية.

١٢ – مارجريت سانجر:

مارجريت سانجر من الأسماء الشهيرة في الدعوة للإباحية والتعددية الجنسية مع الدعوة إلى إلغاء مؤسسة الزواج، وقد اشتهرت بدعوتها للتحكم في النسل والإجهاض، وتفوق الجنس الأبيض.

كيف وأين نستخدم ذكاءنا فهؤلاء الذين يتبنون أن العالم لا معنى له إنما يفعلون ذلك لأنه يناسب رغابتهم في ألا يكون للعالم معنى.

ويلخص الفيلسوف والمفكر الأمريكي الكبير مايكل جونز ما ذهب إليه بول جونسون قائلًا: «هناك نوعان من المفكرين هؤلاء الذين يشكلون رغباتهم تبعًا للحقيقة، وهؤلاء الذين يشكلون الحقيقة تبعًا لرغابتهم، وبين هؤلاء وهؤلاء لا يوجد طيف واسع من الأنماط الفكرية».